

أهذه هي الرجلة؟



www.balagh.com

ثُمَّة غرف حزينة إلى حد التباغض في ألم لا نهاية له. تلك الغرف، هي التي تعاقبك لدى دخولها بأشباح الذكرى التي عبئاً حاولتْ نسيانها، فتغمض عينيك متاجهلاً ما يمرُّ وأماهما من أوجاع. تتبع طريقك متفاجئاً بقدرة الإنسان الغريبة على الاستمرار في الحياة صاماً، على الرغم من طعنات الزمن القاتلة. وتحاول مرغَّماً ترويض أيامك على وقائع ما كنت تتوقعها يوماً، مزروعة في طريقك إلغاً تسعى إلى تدميرك وسحقك خطوة خطوة. تحيط بك تلك الهواجس السوداء التي تعكر مزاج روحك، المتطلعة دوماً إلى الصفاء والسلام. ولا تجد حلاً.. ولا مخرجاً. هنا، وفي هذه الغرفة تجمعت دموع سنين من القهر. وهنا، وعلى هذا السرير الخشبي انهالت عليها يده القاسية بالضرب إلى حد الإغماء، وبشهية غامضة غريبة متوجحة للسادية. كانت تخرج من تلك المعركة أسلاء امرأة محطمة الكراهة، مجرورة الكبراء، إضافة إلى تلك الكدمات والرضوض الجسدية التي كانت تتطلب أياماً لشفتها. وما إن تشفى حتى يظهر سبب وجيه في نظره لضربها وتأديبها وإعادة تربيتها من جديد، لتغطي تلك الكدمات جسدها مجدداً. حتى إنها اعتادت أخيراً على هذا الوضع، فلم تعد تشعر بالألم عندما ينهال

عليها صفعاً وركلاً، بل كانت تنظر إليه صامتة بعينين مفتوحتين جامدين فقدتا بريق الحياة، متسائلة في أعماقها ذلك السؤال الذي لم تجد له جواباً في يوم ما: "أهذه هي الرجولة؟". لطالما بحثت عن أسباب عُنفه وقوته علىّها تجد سلواناً في كونها مذنبة، إلا أنها لم تجد ذنباً يكدر لها أو أي خطأ تحمل مسؤوليته، فهي زوجة مطيبة ومثالية. والأهم من هذا، هي امرأة بسيطة تعشق الهدوء الذي أصبح حلماً تسعى إليه، بعد أن أصبحت حياتها كابوساً مستمراً. فهي تخشى وجوده في المنزل، ويرتجف جسدها بالكامل عندما يحدثها بصوته القاسي، ويرمقها بنظرات مفعمة بالكراهية والبغض. تنتظر رحيله بفارغ الصبر لتنفس الصعداء وتعود لطبيعتها المرحة المحببة، فتغنى وترقص على جروحها، متناسية عصاها الطويلة التي تترصد لها كل خطوة. فقد تعبت من إيجاد المبررات لعنفه، لأنّه، بالتأكيد وفي شرع الإنسانية لا توجد مبررات لهذا العنف الزوجي. ولا توجد أذار لحرمانها من حقوقها كامرأة وزوجة، تلك الحقوق المماثلة تماماً للواجبات التي يطالبها بها دوماً. كان في تلك العلاقة الزوجية الروتينية اهتمام أحادي الجانب برغبات الزوج، وسعياً أناانياً لتلبية رغباته واحتياجاته، مع تجاهل تام لرغبات الزوجة وحاجاتها. حتى إنّها في خضم هذه الرتابة، نسيت لأنّها إنسانة تحمل في داخلها مخزوناً فائضاً من المشاعر الجميلة والأحساس الجياشة. لقد نسيت حتى، أن لها قلباً ينبض، وأن ذلك القلب لطالما بني أحلاماً وردية حول عش الزوجية، الذي تحول بعد فترة قصيرة من الزواج إلى ساحة للضرب والذّل والخوف. إنّه الظلم بكل أبعاده الوحشية، أن ينهال رجل بقوته وجبروته بالضرب على امرأة لم تخطئ في حقه. فقط، لمجرد أن يثبت أنه ربُّ البيت المعبد، وليس لها كإنسانة ويميت في أعماقها جذور الحياة. ويبدو أن زوجها لم يدرك حتى الآن أنه عمل بالتدريج وببطء شديد على تجميد مشاعرها تجاهه، حتى أصبحت روحها تسبح في فراغ لا معنى له، وأضحت ذكراه في نفسها مرتبطة بالألم الجسدي، وبتلك الجروح النفسية التي لن تشفى معها طال الزمن. في بادئ الأمر، كان الأمر كارثياً بالنسبة إليها، لأنّها لم تكن تنتظر خيبة الأمل المميتة من الرجل الذي اختارته بملء إرادتها، وبكل مشاعرها الفتية التي طالما اتجهت نحوه بقوة غريبة وإنذاب غير محدود. أجل، لقد احترق قلبها بنيران الحب الأولى مرة، عندما نظر إليها في ذلك الزفاف المشؤوم، وتبعها بنظراته طوال السهرة. حتى إنها عندما عادت إلى المنزل، شعرت بعينيه تتبعانها لتمتد جذور العشق الأولى في أعماقها ولتذوب شوقاً إلى عينيه اللتين أصبحتا في ما بعد محور حياتها وأساس سعادتها. لم تمض أيام قليلة، حتى رأته في منزلها يطلبها للزواج من والدها. وخلال فترة قصيرة، رفعت إليه عروساً لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، بعد أن تركت دراستها من دون أي تفكير في المستقبل، ومن دون أي توجيه ممن حولها. فقد كان هم والديها الأساسي، هو التخلص من عباء بناهما السبع

بتزوجيهن" بأوّل طالب. وبحكم أنها الابنة الكبرى، فقد فتح زواجها بـ "باباً واسعاً لزواج أخواتها. وانتقلت إلى منزل زوجها محملاً برصيد فائق من الأحلام الوردية، وتصميم داخلي على كسب رضا زوجها ومحبته، وجعل بيتها جنة صغيرة تحيط بها ملائكة الحب والرحمة، وتتدلى فوقها عناقيد الشفف. بدأت حياتها معه بالاستسلام التام لأقواله وأفعاله: من دون أي مناقشة أو معارضة، ظناً منها أن كل ما يقوله أو يفعله، إنما هو نابع من محبته لها ومتوجه نحو مصلحتها، فقد كانت تثق به كرجل قوي، قادر على كل شيء. لكن هذا الاعتقاد، بدأ يتزعزع عندما ضربها لأوّل مرة بعد شهر واحد من زواجهما لسبب تافه، لا تجرؤ على ذكره حتى لا تتعمق جذور الحقد في أعماقها تجاهه. ولم تشکُ أمرها لأحد، لأنها، على الرغم من صغر سنها، إلا أنها تدرك تماماً أنها لن تجني إلا الخيبة من موقف أهلها السلبي تجاهها. ففي رأي والدها، أن من حق الزوج ضرب زوجته حتى لا تتمادي في عصيانها. وهذا ما كان يفعله مع والدتها التي كانت تقابل العنف بالابتسامة الراضية وبصبر غير محدود. إلا أنها، وعلى الرغم من تربيتها الصارمة الموجّهة نحو الخضوع المُذل للاهانات غير المبررة، كانت ترفض ذلك تماماً وتلوم والدتها على صفتها الممرين. شيء ما في داخلها كان ينادي بحقوقها كامرأة، لأن إهانة محب وعطوف ولن يرضيه ما يقوم به، ذلك المجرد من أي مشاعر إنسانية، لأنّه لا توجد أي تسمية يمكن إطلاقها على ذلك المشهد، الذي ينهال فيه رجل بقوته وجبروته بالضرب على امرأة ضعيفة وُعت حياتها أمانة بين يديه. إن هذا الرجل ببساطة مطلقة يملك نزعة جرامية تتمثل في بداياتها في الإيذاء الجسدي والروحي لأقرب الناس إليه. لطالما تجاذبتها أمواج الفكر بين مدٍّ وجزر.. فتارةً، تبدأ في وضع المبررات والتنقيب عن أسباب منطقية لتصرفات زوجها، متذكرة وصايا أمها بكس رضا الزوج والصبر على هفواته. وتارةً أخرى يعلو صوت عقلها غاضباً ثائراً على ضعفها واستسلامها، مصمّمة على محادثته وفتح باب النقاش معه. إلا أنها سرعان ما تتراجع وشرح الذكريات يمرّ أمام ناظريها، لتتيقن أنها عندما تغلبه بمنطقها وحكمتها في نقاش. ما، يلجأ إلى الضرب من دون سبب واضح، لينهي الحديث بطريقة مأساوية، حتى إنها اعتادت على هزّ رأسها بالموافقة على كل ما يقوله ويفعله ليبرتس راضياً، وبالتالي لتبتعد عصاها الطويلة عن جسدها المتعَّب. كانت تتساءل دوماً عن كيفية التخلص من تلك الهواجس السوداء التي تلاحقها أينما تحركت في منزلها، إلا أنها لم تجد حلّاً ولا مَخرجاً. انتفاض جسدها بقوة عندما سمعت صوته يناديها فجأة، وقد تجاوزت الساعة منتصف الليل. لقد عاد من سهرته اليومية خارج المنزل. لملمت أفكارها، وأغمضت عينيها بقوة متجاهلة ما يمرُّ أمامها من أوجاع. وضعت الابتسامة قناعاً على وجهها المتألم، وأسرعت نحوه لتلبّي طلباته.